



مستفزةً ومرؤعة تلك السهولة التي أتبعها اللاعبان الأميركي والروسي في تمرير مصطلحي «التقسيم» و«الفدرلة» في سياق جدلهما على «وقف العمليات العدائية» في سوريا.

كان تشاورهما في شأن الأزمة بدأ منذ أسبابها الأولى، تعاونا بالتصاقٍ قلّ نظيره على ترك الصراع يتعّمق ويتعرّضّ و«يتدعّش»، اختلافاً علّناً وتوافقاً سرّاً ثم تخاصماً شكلاً واتفقاً دائمًا، ثم، فجأةً، أصبحا متعجّلين الحل، ليس حقنًا للدماء، ولا حتى بسبب أخطار الإرهاب وتنظيماته، كما يمكن الاعتقاد، بل لأنّ للدولتين مشاغل أخرى، وأنّ حسابات فلاديمير بوتين لشهر التدخل الستة في سوريا وحسابات باراك أوباما للشهر العشرة المتبقية له في البيت الأبيض باتت تتطلّب تظهير الحصص وتوضيح المصالح استباقاً لأي تغيير يفسد التفاهمات الراهنة.

لدينا هنا الدليل الى أن الدولتين الكبيرتين لا تتقنان سوى الاستفادة من الصراعات. قد تنجحان في ادارتها، وأحياناً كثيرة في إشعالها، أما حلّها فشأن آخر. كانت الأعوام الخمسة الماضية تمرّيناً أميركيًّا يومياً على التفنن في ادارة العجز عن معالجة أي أزمة، بدءاً بالانسحاب تقليصاً لتداعيات غزو جورج دبليو بوش لافغانستان والعراق، ثم بما تبيّن أنه أسوأ من أي غزو وأي انسحاب وهو «التدخل من دون التدخل» في الأزمات/الحروب المستجدة تحت عنوان «الربيع العربي» من سوريا إلى اليمن وليبيا، فضلاً عن السلبية الممنهجة إزاء مصر والبحرين، من دون نسيان الرضوخ الأميركي لزمرة النطرّ في حكومة إسرائيل لاستنباط الفشل الغبي كنمط أسوأ من الانحياز الأعمى.

وإذ ساهم الاتفاق النووي في تعزيز تقارب أميركا مع روسيا وإيران، أصبحت واشنطن أكثر ارتياحاً، لأن هذين «الشريكين» التدخّلتين وغير المعروفيين بأخلاقيتهم السياسية يعفيانها من الأوزار المعنوية.

وإذا كان هناك من يحمل أميركا مسؤولية مذابح رواندا (1994)، بحكم مكانتها الدولية، فإن واشنطن تبدو كما لو أنها تشير إلى شريكها في مسؤولية مذابح سورية، وهي الأفعى منذ بداية الألفية الثالثة. بل إن الطريق إلى هذه «الشراكة» أتاح غضّ النظر الأميركي عن جرائم التدخل الإيراني في سورية، وبعدها جرائم التدخل الروسي، بل مهد للتساهل الأميركي مع استمرار بشار الأسد في منصبه، ثم التساهل مع التصفيّة الروسيّة للمعارضة المقاتلة ضدّه والتجيير المنهجي لما تبقى من سكان في مناطق يريد اقتطاعها لـ «دولته»، والأرجح أنها شراكة ستحول دون إحالة الأسد على المحكمة الجنائية الدولية إسوةً بما حصل لمجريي رواندا. أكثر من ذلك، يهدف التلوّح بـ «التقسيم» مكافأة الأسد و«الشريكين» إلى إعادة تركيب سورية لتناسب مع أطماعهم.

الذرية جاهزة، فما أُبَحِّ أن يقال أنّ البلد ضاع بين شبيحة الأسد ووحشية «داعش»، وما أُسْهَلَ أن يقال الآن أن التعايش بين «السوريين» صار استحالة، لكن من هم السوريون المعنيون هنا؟ إنهم، عملياً، أعداء الأسد و«داعش» معاً. إنهم الذين يريدون الأسد و«داعش» التخلص منهم ليقيم كلّ منها «دولته». أي أن الأميركيين والروس (والإيرانيين) يرون سورية إماً كما يصوّرها لهم صالح مسلم سالحاً منها إقليمه الكردي، أو كما أمعن الأسد في تخربيها وكما يقدمها إليهم، خاليةً من أهلها، «أرضاً بِلْ شَعْبٍ»، لا تاريخ لها، ولا تجربة آهلة هي بين الأقدم في العالم.

وإذ يطرحون التقسيم استجابة للوضع الذي فرضه هذا الثنائي الجهنمي فإنهم يبحثون واقعياً عن صفة مناسبة لمصالحهم. لم يجفّ بعد حبر القرار 2254 الذي يشدد على «وحدة سورية» فكيف يتواهم ادعاء تطبيقه مع فكرة التقسيم، بل كيف يستقيم البحث أولاً عن صيغة مريحة للأقليات مع النظر لاحقاً في كيفية إيواء ثلاثة أرباع الشعب. إذا قدر لصيغة كهذه أن تتم فالآخرى أن تدعو الأمم المتحدة إلى قمة عالمية لتشهد شطب أي عبارة في ميثاقها تقول بـ «احترام ارادة الشعوب في تقرير مصيرها». وعندئذ تتحقق لكوريا الشمالية وما يعادلها العضوية الدائمة في مجلس الأمن الدولي.

اتخذ أوبياما قراراً صائباً بالانسحاب من العراق لكنه كسلفه جورج دبليو لم يشأ أن يدرك أهمية العراق كموقع مؤثر في توازن المنطقة واستقرارها، وكسلفه أخطأ في أنه لم يعالج الخراب الذي أحده الغزو والاحتلال ولم يهتمّ بوضع أسس سليمة لمعالجة كهذه، بل ترك الفوضى لعنابة إيران، التي تعرف أميركا أنها أقرب إلى دولة مارقة منها إلى دولة طبيعية. لذلك لم يكن نتاج الغزوين الأميركي والإيراني سوى هذا المخلوق الوحشي الذي اسمه «داعش».

في العراق أيضاً قيل وُقُّال أن تعايش السنة والشيعة صعب، وفي أيام سيء الذكر نوري المالكي كان السُّنة مخierون في الخصوص لأحد إرهابييْن: إماً إيران وميليشياتها وإماً «داعش». وعلى رغم أن «المصالحة الوطنية» على أجندة البلد إلا أن مجرد الحديث عنها صار كأنه منافٍ للعقل أو خارج أي سياق، وهناك من استسلم أخيراً لاستخلاص مفاده أن دستور 2005 خطط للتفسخ الجغرافي عندما شرع فدرلة الإقليم الكردي أكثر مما أسس لإعادة توحيد الشعب والدولة، وعلى رغم أن الفيدرالية تعني البقاء في كيان دولة واحدة فقد كان معروفاً أن الكرد ذاهبون إلى الاستقلال الكامل أو إلى أقصى درجة من الانفصال.

ومنذ الغزو صارت مسألة وحدة العراق قيد التداول، حار بها الأميركيون ونصح جو بايدن بتقسيمه قبل أن يصبح نائباً للرئيس، أما الإيرانيون فتمسّكوا بوحدته لكن تحت هيمتهم. بين العجز الأميركي والطمع الإيراني نال «داعش» إمكان الحسم بإخضاع المحافظات السنية، لكن ضربه وطرده بات اليوم إيذاناً بالعد العكسي لـ «فدرلة» هذه المحافظات.

في سورية كما في العراق، كما في ليبيا واليمن، كان الديكتاتوريون بوجهين، واحدٌ مزيف يظهرون رموزاً لوحدة البلد والشعب ولو بالقمع والبطش وسفك الدماء، وآخر حقيقي أظهر بعد سقوطهم (بمن فيهم بشار الأسد) أنهم كانوا يحكمون

بانقسامات قديمة حافظوا عليها وبآخرى افتعلوها واحتضنوها وقد فعلت فعلها في شرذمة الشعوب وتقاتلها طوائفٌ ومذاهبٌ واثنياتٌ وأعراقاً ومناطقٌ وهوياتٌ.

كان للديكتاتوريين رعاة وسماسرة وزبائن، من دول عظمى أو أقل عظمة، دعموهم وصنعوا أيام عزّهم وقدّموا أنفسهم ضامنين للأمن والاستقرار، ثم انقلبوا عليهم يوم اهتزّ أنظمتهم ليتبين أنهم لا يضمنون أمناً ولا استقراراً بل إنهم لم يعرفوا عن هذه البلدان والشعوب سوى أنها كانت ويريدونها أن تستمر أدواتٍ وملاعبٍ لسياساتهم، ولا سبيلٍ إلى ذلك إلا بتقسيم البلدان لتوزّع النفوذ والمصالح فيها بين القوى الخارجية.

فالحروب الأهلية تسبّب بتشظيّات سياسية واجتماعية لا يستوعبها قطب دولي واحد أو اثنان، ما استوجب نمطاً من التفرّل بين هذه القوى لتقسيم المقسم وتقاسمـه.

إذا سألتَ عن العراق يقول المجبّيون أن إيران و«داعش» و«الحشد الشعبي» أسباب موجبة للتقسيم. قد لا يختلف الأمر بالنسبة إلى اليمين بسبب إيران والホثيين، إذا طُرِح التقسيم. وفي ليبيا ازداد وسواس الأقاليم الثلاثة حضوراً مع وجود ثلاث حكومات وصعوبة الحل السياسي على رغم تصاعد الخطر «الداعشي» وتنامي ظروف التدخل الدولي.

أما في سوريا فيتّوّع «الراعيـان» الأميركي والروسي ويتطاـهران بالضغط والرهان على مفاوضات تبقى الآمال في نجاحها ضئيلة جداً. وكيف تنجح بعـدما تبرـع «الراعيـان» بالإشارة إلى نتـيجتها (تقسيـم أو فيـدرالية)، قبل أن تدخل فعلاً صـلب المـوضوع. صحيح أن فكرة التقسيـم، وما شـابـه ذلكـ، كانت دائمـاً في خـلفـيـة المشـهدـ، منذ تـروـيج نظام حـافـظـ الأـسـدـ فـصـائـلـ حـكـمـ الأـقـلـيـةـ لـلـغـالـيـةـ وـ«ـتـقـيـفـ» طـائـفـهـ عـلـىـ مـبـدـأـ «ـنـحـكـمـ وـلـاـ نـحـكـمـ»ـ، وـخـصـوصـاـ منـذـ تـشـجـيعـهـ الـوـحـشـيـةـ الـأـمـنـيـةـ وـالـمـعـاـمـلـةـ الـرـعـاعـيـةـ لـأـبـنـاءـ الـشـعـبـ، وـهـيـ سـلـوكـيـاتـ زـادـتـ هـمـجـيـةـ خـلـالـ عـهـدـ الـأـسـدـ الـابـنـ...ـ إـلـاـ أنـ سـيـنـارـيـوـاتـ التـقـسـيـمـ وـمـعـادـلـاتـهـ وـخـرـائـطـهـ اـصـطـدـمـتـ دائمـاـ بـوـاقـعـ جـغـرـافـيـ...ـ اـجـتـمـاعـيـ غـيرـ موـاتـ، وـلـمـ يـبـقـ لـبـوـتـيـنـ وـأـوـبـامـاـ سـوـيـ الإـقـرـارـ بـأـنـ مـجـازـرـ الـأـسـدـ وـالـإـيـرـانـيـيـنـ، بـعـدـ مـجـازـرـ صـدـامـ وـمـنـ خـلـفـوهـ، وـبـعـدـ مـجـازـرـ الإـسـرـائـيـلـيـيـنـ، هـيـ التـيـ مـهـدـتـ لـ«ـعـهـدـ الـدـوـيـلـاتـ»ـ فـيـ الشـرـقـ الـأـوـسـطـ الـجـدـيدـ.

الحياة اللدنية

المصادر: